﴿*إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ٢٢﴾ [الأنفال: 22]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذكرَ اللّهُ في الآيةِ السّابقةِ حالَ أولئكَ الَّذين قالو: سَمعْنا بآذانِنا، ولا يستجيبونَ لِما سَمِعوا، فكأنَّهم لم يَسمَعوا؛ جاءت هذه الآيةُ، فشبّهتْ حالهم تلكَ عندَ اللّهِ بحالِ الأصَمِّ في عدمِ السَّماعِ لعدَمِ الانْتفاعِ به، والأبْكمِ في عدمِ كلامِه لعدمِ تكلُّمِه بما ينفعُ، والعادمِ للعقلِ في عدمِ عقلِه لعدمِ انْتفاعِه به.

الـرّبـط بـيـنَ الـدّعـوة لطاعة الـلـه ورسـولـه، وكـون السّامع دون استجابةٍ شرٌّ منَ الدَّوابِّ

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾: الدَّبُّ والدَّبيبُ: مشيٌ خَفيف، ويُستعمَلُ ذلكَ في الحيوان، وفي الحشَرات أكثر، وكلُّ ماشٍ على الأرضِ دابَّةٌ، قالَ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ﴾ [النّور: 45]، وقالَ ﷻ: ﴿وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٖ﴾ [فاطر: 45]، وقيل: عنَى الإنسانَ خاصَّةً[1]، والأولى إجراؤها على العُموم.

2) ﴿ٱلصُّمُّ﴾: الصَّمَمُ: فقدانُ حاسَّةِ السَّمْع، وبه يوصَفُ مَنْ لا يُصغي إلى الحقِّ ولا يَقبَلُه، قالَ تعالى: ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ﴾ [البقرة: 18]، وقولُه تعالى هنا: ﴿ٱلصُّمُّ﴾، أي: الَّذينَ يصمّون آذانَهم، أي: يكتُمونَها عن سماعِ الحقِّ وقَبولِه[2].

3) ﴿ٱلۡبُكۡمُ﴾: الباءُ والكافُ والميمُ أصلٌ واحدٌ قليلٌ، وهو الخَرَسُ، والأبْكَمُ: الأخْرسُ الَّذي لا يتكلَّم، وإذا امْتنَعَ عن الكلام جهلًا أو تعمُّدًا، يُقالُ: بَكُمَ عن الكلام، وقد يُقالُ للَّذي لا يُفصِحُ: إنَّه

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 156/2.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشَّوكاني، فتح القدير: 429/2.

لَأَبْكَمُ، والأَبْكَمُ للَّذي وُلِد أَخْرسَ، فكلُّ أبكمَ أخرسُ، وليس كلُّ أخرسَ أبكمَ، ويُقالُ: بكيمٌ في معنَى أبكمَ، وجمعوهُ على أَبْكام، كشَريفٍ وأشرافٍ[1]. وقولُهُ تعالى هنا: ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ أي: الَّذين لا ينتفعونَ بالنُّطْقِ، أو البُكْمُ عن فهمِه أصْلًا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أخبرَ ﷻ أنَّ هذا الضَّرْبَ من بني آدَمَ الَّذين قالوا: سمعنا، وهم لا يسمعونَ هم شرُّ الخَلْقِ والخليقةِ، فهم صُمٌّ عن سَماعِ الحقِّ، بُكْمٌ لا يقولون: الحقَّ، كأنَّهم فقدوا حاسَّةَ الكلامِ، فهمُ الَّذين لا يَعْقِلونَ على وجْهِ الحقيقةِ الفرقَ بين النّورِ والظَّلامِ، والهُدَى والضَّلالِ، والإسلامِ والكفرِ، فهؤلاء شرُّ البَريَّة؛ لأنَّ كلَّ دابَّةٍ ممّا سواهُم مطيعةٌ للّهِ فيما خَلَقها لهُ، وهؤلاء خُلِقوا لعبادةِ اللّهِ وحدَهُ، فكفَروا، وأشْركوا معهُ غيرَهُ، ولهذا شبَّهَهُمُ اللّهُ بالأنعامِ، فقالَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: 179][3].

شـرُّ الخلقِ هو الَّذي يسمعُ ولا يجيبُ، ويوعَظ ولا يستجيب

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الاستئنافِ في الآية:

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ اسْتئنافٌ مسوقٌ لبيانِ كمالِ سوءِ حالِ المشبَّهِ بهِ مبالغةً في التَّحذيرِ، وتقريرًا للنَّهيِ الواردِ في قولِه السّابق: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[4]، فالغرضُ من الاستئنافِ تقريرُ سوءِ حالِ الكافرين.

بـيـانُ سـوءِ حـالِ المعاندين الصُّمّ، لفقدِهِم مـقـوِّمـاتِ الإنسانيَّة

دلالةُ الجملةِ الاعتراضيَّةِ:

يمكنُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾ مُعترضَةً، وسَوْقُها في

التَّعريضُ بسوءِ حالِ من قالوا: (سمعنا وهم لا يسمعون)

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 284/1 - 285، والرّاغب، المفردات، ص: 140.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشّوكاني، فتح القدير: 429/2.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2.

هذا الموضع تعريضٌ بالَّذينَ قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعونَ، بأنَّهم يُشبهونَ دوابَّ صمّاءَ بَكْماءَ[1].

بلاغةُ التَّأكيدِ بـ الأداة المؤكّدة (إنَّ):

إثباتُ الشَّرّيَّةِ التّامَّةِ للكفّارِ

جاءَ حرفُ ﴿إِنَّ﴾ تأكيدًا لشَرّيَّةِ هذهِ الفئةِ العاتيةِ من الكفّارِ، فهي شَرُّ النّاسِ عندَ اللهِ ﷻ وأنَّها أخسُّ المنازلِ لدَيْهِ، لا يُتصوَّرُ وجودُ أسوءَ منها مكانةً، ولا أسْفَلَ منها دَرَكةً[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ إليهِ معرَّفًا بالإضافةِ:

أفـادَ تركيبُ (شَـرّ الـدَّوابّ) المبالغةَ في النَّهيِ والتَّحذيرِ

جاءتْ كلمةُ ﴿شَرَّ﴾ مُسندةً إلى كلمةِ ﴿ٱلدَّوَآبِّ﴾؛ لتكتسبَ بهذا الإسنادِ التَّعريفَ، فتستوعبَ باسْمِ التَّفضيلِ ﴿شَرَّ﴾ جميعَ الدَّوابِّ بمعناهُ الحقيقيِّ؛ بل أكثرَها وأشَدَّها شَرًّا، وفي هذا ما فيه مِنَ المبالغةِ في التَّحذيرِ والإيْغالِ في النَّهيِ والنَّكيرِ[3].

بلاغة الاستعارة التَّمثيليَّة في الآية:

التَّأكيدُ على ذمِّ الكفّارِ بالتَّصويرِ البيانيّ المفصح عن المراد

في قولهِ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية، استعارةٌ تمثيليَّةٌ، شبَّهَ فيها من لا يسمعُ الحقَّ، ولا يدركهُ، ولا يبصرُ الآياتِ، ولا يتأمَّلُها بالدّابَّةِ الَّتي لا تسمعُ مواطئَ الأقدامِ، فتطؤها، ومن لا ينطقُ مستغيثًا، فتدقُّهُ الأمورُ دقًّا، ومن لا يعقلُ ما يضرُّهُ، فيكونُ فريسةَ الكلِّ، وجامعُ التَّشبيهِ هو عدمُ الفائدةِ من هذه الحواسِّ في كلٍّ منهم[4]، وقد شبَّههم بالدَّوابِّ لجهلِهم وعدولهم عن الانتفاعِ بما يقولونَ، أو لأنَّهم من الدَّوابِّ، وصفهم بذلك على طريقِ الذَّمِّ؛ لأنَّهُ إذا عبَّر عن الإنسانِ بأصغرِ ما ينطبقُ عليهِ اسمُ الدَّوابِّ والحيوان، كان ذلك تحقيرًا لهُ، واستهانةً بأمرهِ، من زعيم يرفعُ ويخفضُ، إلى حيوانٍ لا يملكُ من أمره شيئًا تدعكهُ الأرضُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 305/9.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 513/2.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 306/9.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3095/6.

بالأقدامِ، وهو حيوانٌ كلُّهُ آفاتٌ، فاقدٌ لكلِّ حواسِّ الإدراكِ الحسّيَّة والمعنويَّةِ[1].

سرُّ التَّعبيرِ بعبارة: ﴿شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بوصفِ ﴿شَرَّ﴾ دونَ (أسوأ)؛ لأنَّ الشَّرَّ يقابلهُ الخيرُ؛ بخلافِ الأسوأِ، فيقابلهُ الأحسنُ، والمقامُ هنا يناسبهُ التَّعبيرُ بالشَّرِّ؛ لأنَّهُ لا يوجدُ خيرٌ في هذهِ الفئةِ مِنَ البشرِ، فهم شرٌّ محضٌ؛ بخلاف الأسوأِ فقد يوجدُ فيهِ بعضُ الخيرِ مع النُّدرةِ، وليس ذلك مرادًا.

التَّأكيدُ على انتفاءِ الخيرِ في الكفّارِ

بلاغةُ تقديمِ شبهِ الجُملةِ على المسندِ (عندَ الله):

تقديمُ شِبهِ الجُملةِ في قولِه تعالى: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ قيدٌ أُريدَ بهِ زيادةُ تحقُّقِ كونِهم شرَّ الدَّوابِّ بأنَّ ذلكَ مُقرَّرٌ في علمِ اللّه؛ وليس مجرَّدَ اصْطلاحٍ ادِّعائيٍّ، أي: هذه هي الحقيقةُ في تَفاضُلِ الأنواعِ لا في تَسامُحِ العُرْفِ والاصْطلاح، فالعُرْفُ يَعُدُّ الإنسانَ أكملَ من البهائم، والحقيقةُ تُفصِّلُ حالةَ الإنسانِ، فالإنسانُ المُنتَفِعُ بمواهبه - الَّتي منحَها اللّهُ له - فيما يُبلِّغُه إلى الكمالِ هو بحقٍّ أفْضَلُ من العُجْمِ، والإنسانُ الَّذي دَلَّى بنَفْسِه إلى حضيضِ تعطيلِ انْتفاعِه بمواهبِه السّاميَةِ يَصيرُ أحَطَّ من العَجماواتِ[2].

الموصوفونَ بأنَّهم شرُّ الدَّوابِّ، أمْرهم مقرَّرٌ في علمِ اللهِ ﷻ

سرُّ الوصفِ بالصُّمِّ والبُكمِ، دون سواه مِنَ الأوصاف:

وُصِفوا بالصُّمِّ والبكم؛ لأنَّ ما خُلِقَ لهُ الأذنُ واللِّسانُ، سماعُ الحقِّ والنُّطق به، وحيثُ لم يوجد بهم شيءٌ من ذلك صاروا كأنَّهم فاقدونَ للجارحَتَينِ رأسًا[3].

التَّأكيدُ على الذَّمِّ بنفي أداةِ السَّمعِ وأداةِ التَّعبيرِ عنِ السَّمعِ

بلاغةُ التَّرتيبِ في سياق الآية:

قوله تعالى: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾، تقدَّمَ فيه الصُّمُّ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 133/8، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 3095/6.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 306/9.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 15/4.

على البُكْم في الآيةِ الكريمة؛ لأنَّ صمَّهم متقدِّمٌ على بُكمِهم من حيثُ الواقعُ، فإنَّ السُّكوتَ عنِ النُّطقِ بالحقِّ مِن فروعِ عدمِ سماعِهم له، كما أنَّ النُّطقَ به من فروعِ سماعِه.

السَّمعُ أصلٌ، والنُّطقُ فرعٌ لهُ مبنيٌّ على وجودِه، وفقدُ العقلِ غايةٌ في الشَّرّيَّةِ

سرُّ وصفِهم بعدمِ التَّعقُّل في قولِه: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾:

جاءَ وصفُهم بعدَمِ التَّعقُّلِ تحقيقًا لكمالِ سوءِ حالِهم، فإنَّ الأصمَّ الأبْكَمَ إذا كانَ له عقلٌ، رُبَّما يفهمُ بعضَ الأمورِ؛ يُفهِمُهُ غيرُه بالإشارة، ويَهتدي بذلكَ إلى بعضِ مَطالبِه، وأمّا إذا كانَ فاقدًا للعقلِ - أيضًا - فهو الغايةُ في الشَّرّيَّة وسوءِ الحال، وبذلكَ يَظهرُ كونُهم شَرًّا من البهائم حيثُ أبْطلوا ما به يمتازونَ عنها، وبه يفضُلونَ على كثيرٍ من خلقِ اللَّهِ ﷻ فصاروا أخَسَّ من كلِّ خَسيسٍ[1].

تحقيقُ كمالِ سوءِ حالِهم، وانعدامِ آلةِ الفهمِ لديهم

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

أفادَ اسْمُ الموصولِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ وصفَهم بانْتفاءِ العقلِ عنهم، أي: عَقْلِ النَّظَرِ والتَّأمُّلِ، بَلْهَ عقلَ التَّقبُّلِ، فـ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هنا ممّا يناسبُ المشَبَّهين، إذْ هو اسْمٌ موصولٌ بصيغةِ جمعِ العقلاءِ، وهذا تخلُّصٌ إلى أحوالِ المشبَّهين[2].

أفادَ اسْمُ الموصولِ وصفَهم بانْتفاءِ العَقْلِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بأسلوبِ التَّعريضِ:

في قولِه تعالى: ﴿۞إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية تعريضٌ[3] بالَّذين قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعون، بأنَّهم يُشبهونَ دَوابَّ صَمّاءَ بَكْماءَ لا تعقل، فشُبِّه المشركون والمنافقون بالصُّمِّ في عدمِ الانْتفاعِ بما سمعوا؛ لأنَّه ممّا يَكْفي سماعُه في قَبولِه والعملِ به، وشُبِّهوا بالبُكْمِ في انْقطاعِ الحُجَّةِ والعَجْزِ عن ردِّ ما جاءهم به القرآنُ، وفَهمِ ما قَبلوا، ولا أظْهروا عُذرًا عن عدمِ قَبولِه.

تشبيهُ الكفّارِ والمنافقينَ بالدَّوابِّ، في انتفاءِ الإدراكِ، وفقْدِ العقلِ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 479/2 - 480.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 306/9.

(3) التَّعريض كلامٌ أُريد به لازمُ مدلوله، وهو أنْ تذكرَ شيئًا يُدَلُّ به على شيءٍ لم تذكره، أي: تذكر كلامًا دالًّا على ما تريدُ دون التَّصريح به، كما يقولُ المحتاج لغيره: جئتُ لأُسلِّمَ عليك، ينظر: الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 199، وفضل عباس، أساليب البيان، ص: 350 - 351.

وأصلُ التَّعريضِ في تشبيههم بالدَّوابِّ بأنَّ الدَّوابَّ ضعيفةُ الإدراكِ، فإذا كانتْ صمّاءَ كانت مَثَلًا في انْتفاءِ الإدْراك، وإذا كانت مع ذلكَ بُكْمًا انْعدَمَ منها ما يَعرِفُ به صاحبُها ما بها، فانضمَّ عدَمُ الإفهامِ إلى عدمِ الفَهمِ، وانضمَّ إليهما فقدُ العقلِ، فهي ظلماتٌ بعضُها فوقَ بعضٍ[1].

سرُّ الاكتفاءِ ببعض الصِّفاتِ:

ذمُّ الأُسُسِ يستتبعُ ذمَّ الفروعِ

قوله تعالى: ﴿ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ اكتفى فيه بهذه الصِّفاتِ؛ لأنَّه هي الأساسُ الَّذي نبني عليه وسائلَ الإدراكِ، فإذا فقدوا منفعةَ السَّمعِ والنُّطقِ والعقلِ، كانوا كأنَّهم فقدوا هذه المشاعرَ والقوى بأن خُلِقوا خداجًا ناقصي هذه المشاعرِ أو طرأتْ عليهم آفاتٌ أذهبتْ هذه القوى، فهذهِ المشاعرُ خُلِقَتْ لهم، فأفسدوها على أنفسِهم، إذ لم يستعملوها فيما خُلِقَت لأجلِه، وهو العبادةُ[2].

سرُّ التَّعبير بنفي العقلِ دونَ غيرِه، مِن وسائل الإدراك:

فقدُهُم وسائلَ الإدراكِ يؤدّي إلى وصفِهم بعدمِ العقلِ

في قولِه: ﴿لَا يَعۡقِلُونَ﴾ إشارةٌ إلى أنَّ نفيَ العقلِ عنهم نتيجةٌ لوصفِهم بالصُّمِّ البُكمِ؛ لأنَّهم فقدوا أهمَّ طرقِ الإدراكِ والتَّواصل، فأصبحوا لا يفقهونَ شيئًا؛ لأنَّ العقلَ يكتسبُ معارفَهُ عن طريقِ هذه الحواسِّ، ولذلك المرادُ هنا عدمُ الفهمِ؛ لأنَّ العقلَ على نوعين؛ الأوَّلُ: عقلٌ غريزيٌّ مميَّزٌ مقابلٌ للجنونِ، ويطلق على القوَّة المتهيِّئةِ لقبولِ العلم، الثّاني: العقلُ المُكتسبُ المقابلُ للجهلِ وعدمِ الفهمِ الَّذي هو مناطُ التَّكريمِ، ويُطلَقُ هذا العقلُ على العلمِ الَّذي يستفيدُهُ الإنسانُ بهذهِ القوَّةِ العاقلةِ، وهو يرجعُ إلى العقلِ الغريزيِّ؛ لأنَّهُ من نتيجتِه، ولذلك كلُّ موضعٍ ذمَّ اللّهُ فيه الكفّارَ بعدمِ العقلِ، فهو إشارةٌ إلى النَّوعِ الثّاني، ومنه هذا الموضع[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 305/9 - 306.
(2) الهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 380/10.
(3) الغرناطي، ملاك التأويل: 393/2.

سرُّ اختلافِ فاصلةِ آيتي الأنفال [22] و[55]، مع اتِّفاق صدرِهما:

اخـتـلافُ سياقِ الـسِّـبـاقِ هو مَـنـاطُ اخـتـلافِ الفواصل

قال تعالى: ﴿*إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الأنفال: 22]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأنفال: 55]، فقد اختلفت فاصلةُ الآيةِ الأولى مع الآيةِ الثّانيةِ؛ لأنَّ الأولى يسبقُها قولُهُ: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾، فوصَفَ اللّهُ من استخدموا سمعَهم وأقوالهم، فيما لا فائدةَ منهُ بالصُّمِّ البكمِ الَّذين لا عقلَ لهم، ناسبَ ذلك هذا الختامَ؛ أمّا الآيةُ الثّانيةُ، فسبقها قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾، والسّياق متعلِّقٌ بالذين كفروا، وهم على نوعَينِ منهم من آمنَ، ومنهم من لم يؤمن؛ لذلك كان ختامُ الآية لهذا الصِّنفِ.

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [الأنفال: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تكملة الكلام عن الصَّمِّ البُكمِ الّذين لا يعقلون لهم، بتأكيد الذَّمِّ المتحقّق ببيانِ علّتِهِ

لَمّا بيَّن اللّهُ ﷻ في الآيةِ السّابقةِ صفاتِ شرِّ الدَّوابِّ عندَه؛ أثارَ سؤالًا عند السّامعِ بأن يقولَ: ما لِلْقادرِ ﷻ لم يقبلْ بمن هذا شأنُه إلى الخيرِ؟ أجابَ بأنَّه تعالى جَبَلهم من أوَّلِ الأمرِ - وهو ﷻ لا يُسألُ عمّا يفعل - فهو أعلمُ بحالِ قلوبِهم واسْتعدادِهم لقَبولِ الحقِّ أو رَفْضِه حاضرًا أو مستقبلًا، فعلمَ سبحانه أنَّه لا خيرَ فيهم، فتركَهم على ما علمَ منهم، ولو علمَ فيهم قَبولًا للحقِّ؛ لَهداهُم إليهِ، وجعلَهم مُستجيبينَ له[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ﴾: العلمُ إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِه. والعلمُ نظريٌّ وعمليٌّ، فالأوَّلُ: ما إذا عُلِمَ فقد كَمُل، نحو: العلمُ بموجوداتِ العالَم، وهذا خاصٌّ باللّه، قالَ تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الملك: 14]. والثّاني: ما لا يتمُّ إلّا بأنْ يُعملَ كالعلمِ بالعباداتِ، والعلمُ كذلك عقليٌّ وسمعيٌّ. والتَّعليم: تنبيهُ النَّفْسِ لتصوُّرِ المعاني، ومنه قولُه تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [العلق: 4]. وُصِفَ اللّهُ تعالى بالعلم؛ لأنَّه لا يخفَى عليه شيءٌ، كما قالَ ﷻ: ﴿لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ﴾ [الحاقّة: 18]، وذلكَ لا يصحُّ إلّا في وصْفِه تعالى[2].

2) ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾: تقدَّمَ معنى السَّمعِ لغةً في الآيتين [20 - 21]، وأمّا قولُه تعالى هنا: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ﴾ في موقعها في السّياق، فمعناه: لَأفْهَمَهم، أي: أسْمعَهم سَماعًا يَفهمونَ به، فيَستجيبون[3].

(1) البقاعي: نظم الدُّرر: 248/8.
(2) الرّاغب، المفردات، ص: 580 - 581، وابن منظور، اللّسان: (علم).
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، والشّوكاني، فتح القدير: 479/2.

3) ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: أعْرَضَ: أظْهرَ عَرْضَهُ، أي: ناحيتَهُ، فإذا قيل: أعْرضَ لي كذا، أي: بَدا عَرْضُه، فأمْكَنَ تناولُهُ، وإذا قيل: أعْرَضَ عنّي، فمعناهُ: ولَّى مُبديًا عَرْضَهُ، كما قالَ تعالى: ﴿فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ [النّساء: 63]، وقالَ تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 32][1]. ومنه هنا في الآية: ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾، أي: تَوَلَّوْا عن ذلكَ قَصْدًا وعِنادًا بعد فهمِهم ذلك، والحالُ أنَّهم في غايةِ الإعراضِ والإدْبارِ[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في هذهِ الآيةِ أخْبرَ ﷻ أنَّه لو عَلِمَ أنَّ فيهم خيرًا؛ لأفْهمَهم، ولكن لا خَيْرَ فيهم، ولذلكَ تَوَلَّوْا عنِ الطّاعةِ، وأعرَضوا عن الحقِّ، وهذا دليلٌ على أنَّ اللّه تعالى لا يَمنعُ الإيمانَ والخيرَ عن أحدٍ، إلّا عمَّنْ لا خيرَ فيهِ، والَّذي لا يَزْكو لدَيْه، ولا يُثْمِرُ عندَه[3].

انـتـفـاءُ الـخـيرِ في طـيـنـتِـهـم وجـبـلَّـتـهـم، جَـعَـلَـهـم أهـلًا لعدم السَّماعِ

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في ﴿وَلَوۡ﴾:

يجوزُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِه: ﴿وَلَوۡ﴾ عاطفةً لجملتِها على جملةِ: ﴿*إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ﴾ باعْتبارِ أنَّ الدَّوابَّ مُشبَّهٌ به الَّذينَ قالوا: سَمِعْنا، وهم لا يَسمعون. ويجوزُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً لجملتِها على شِبهِ الجملةِ في قولِه: ﴿كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[4].

تعدُّدُ المعطوفِ عليهِ، تنوّعٌ في الدّلالة

دَلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الشَّرطِ ﴿عَلِمَ﴾:

يَدُلُّ فعلُ الشَّرطِ ﴿عَلِمَ﴾ بعدَ ﴿وَلَوۡ﴾ على أنَّ انْتفاءَ علمِ اللّهِ بشيءٍ يُساوي علمَهُ بعدمِه؛ لأنَّ علمَ اللّهِ لا يختلفُ عن شيءٍ، فصارَ معنَى ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا﴾: لو كانَ في نفوسِهم خيرٌ[5].

انْتفاءُ علمِ اللهِ بـشيءٍ يُساوي عِلمَه بعدمِه

(1) الرّاغب، المفردات، ص: 559 - 560، وابن منظور، اللّسان: (عرض).
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 273/2، وتيسير الكريم الرَّحمن، ص: 271.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿عَلِمَ﴾ دونَ المضارعِ (يعلم):

علْمُ اللهِ بعدمِ هدايتِهم أزليٌّ

عبَّرَ بالفعلِ الماضي ﴿عَلِمَ﴾ للدَّلالةِ على أنَّ عِلْمَ اللهِ بهم وبأحوالِهم في عدمِ انتفاعِهم بالسَّماعِ لو أسمعَهم لعدمِ وجودِ الخيرِ فيهم، أمرٌ أزليٌّ ليس حديثًا ولا طارئًا؛ لأنَّ علمَ اللهِ تعالى على أربعةِ أقسامٍ: جملةِ الموجوداتِ، وجملةِ المعدوماتِ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من الموجوداتِ لو كان معدومًا، فكيفَ يكونُ حالُهُ، وأنَّ كلَّ واحدٍ من المعدوماتِ لو كان موجودًا، فكيفَ يكونُ حالُهُ، والقسمانِ الأوَّلانِ: علمٌ بالواقعِ، والآخرانِ: علمٌ بالقَدَرِ، والآيةُ من القسمِ الأخيرِ، وهو العلمُ بالمقدَّراتِ، وليس من أقسامِ العلمِ بالواقعاتِ[1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالمسنَدِ إليهِ باسْمِ الجَلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

العلمُ الأزليُّ بالمقدوراتِ، للهِ وحدَهُ لا لأحدٍ سواهُ

وردَ اسْمُ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مُسنَدًا إليه علمُه ﷻ للدَّلالةِ على أمورٍ ثلاثةٍ؛ الأوَّلُ: أنَّ عِلْمَ اللهِ أزليٌّ قديمٌ. الثّاني: إجراءُ أمرِهم على المألوفِ من حِكمةِ اللهِ في خَلْقِ أجناسِ الصِّفاتِ وأشخاصِها. الثّالثُ: أنَّ ما سبقَ وكلَّ شيءٍ لا يخرجُ عن قُدرةِ اللهِ تعالى ومنه هذا الشَّيءُ، أي: لو شاءَ اللهُ أنْ يُجريَ أمرَهم على غيرِ المعتادِ من أمثالِهم لَفَعَلَ سبحانه وبهذا يُعلَمُ أنَّ كلَّ من لم يؤمنْ منَ المشركينَ حتَّى ماتَ على الشِّركِ؛ فقدِ انْتفتْ مخالَطةُ الخيرِ نَفْسِه، وأنَّ كلَّ من آمنَ منهم، فهو في وقتِ عنادِه وتَصْميمِه على العنادِ، قدِ انْتفتْ مخالطةُ الخيرِ نَفْسِه، ولكنَّ الخيرَ يلمعُ عليه، حتَّى إذا اسْتولَى نورُ الخيرِ في نَفْسِه على ظُلمةِ كُفرِه؛ ألْقَى اللهُ في نَفْسِه الخيرَ، فأصبحَ قابلًا للإرشادِ والهُدَى، فحقَّ عليه أنَّه قدْ علمَ اللهُ فيه خيرًا حينَئذٍ، فأسْمعَهُ[2].

من خصائصِ لغةِ القرآنِ مجيءُ ﴿وَلَوْ﴾ على غيرِ بابِها:

أداةُ الشَّرطِ ﴿وَلَوْ﴾ وُضِعتْ للدَّلالةِ على انْتفاءِ الشَّيءِ لأجْلِ انْتفاءِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 200/3.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 308/9.

غيرِه، فإذا قلتَ: لوْ جئتَني لَأكرمتُك، أفادَ أنَّه ما حصلَ المجيءُ، وما حصلَ الإكرامُ، وهذا هو الأصلُ عندَ النَّحْويّين. لكنَّ ﴿وَلَوْ﴾ قد لا تفيدُ إلّا الاسْتلزامَ، فأمّا الانْتفاءُ لأجْلِ انْتفاءِ الآخرِ، فلا يُفيدُه هذا اللَّفظُ، والدَّليلُ عليهِ هذه الآيةُ، وتقريرُهُ: أنَّ كلمةَ (لو) لو أفادَتْ هنا ما ذكرَهُ النَّحْويون؛ لكانَ قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ يقتضي أنَّه تعالى ما علمَ فيهم خيرًا، وما أسمعهم، ثمَّ قال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ﴾ فيكونُ معناهُ: أنَّه ما أسْمَعهم، وأنَّهم تولَّوْا لكنَّ عَدَمَ التَّولّي خيرٌ مِنَ الخيراتِ، فأوَّلُ الكلامِ يَقْتضي نَفْيَ الخيرِ، وآخرُه يَقْتضي حصولَ الخيرِ، وذلكَ مُتناقضٌ، فثبتَ أنَّ القولَ بأنَّ كلمةَ (لو) تُفيدُ انْتفاءَ الشَّيءِ لانْتفاءِ غيرِه، لا يَصحُّ في هذا المقامِ هنا في الآية؛ لأنَّه يوجِبُ هذا التَّناقضَ، فوجَبَ ألّا يُصارَ إليهِ[1].

(وَلَـوْ) هنا تفيدُ الاسْتلزام، فلو أُجريتْ على أنَّها حـرفُ امْتـنـاعٍ لامْتناعٍ؛ لَوقعَ التَّناقضُ

دلالةُ التَّنكيرِ في قوله: ﴿خَيْرًا﴾:

أفادَ التَّنكيرُ في قوله: ﴿خَيْرًا﴾ العمومَ والشُّيوعَ، والمعنى: لم يعلمِ اللّهُ فيهم شيئًا من جنس الخيرِ.

انـتـفـاءُ الـخـيرِ منهم على وجهِ العمومِ، حكم عليهم بالهلاك

دلالةُ التَّقييدِ بقولِهِ: ﴿فِيهِمْ خَيْرًا﴾:

جاءَ تقريرُ الكلامِ، لو حصلَ فيهم خيرًا؛ لأسمعهم اللّهُ الحُججَ والمواعظَ سماعَ تعليمٍ وتفهيم، ولو أسمعَهم بعد أن علمَ أنَّه لا خيرَ فيهم، لم ينتفعوا بما أُسمعَهم، وتولَّوا وهم معرضون، لمّا سألوا رسولَ اللّهِ ﷺ أن يحيي لهم قصيَّ بنَ كلاب وغيره من أمواتهم؛ ليخبروهم بصحَّةِ نبوَّتِه ﷺ فبيَّنَ اللّهُ تعالى أنَّهُ لو علمَ فيهم خيرًا، وهو انتفاعُهم بقولِ هؤلاءِ الأمواتِ؛ لأحياهم حتَّى يسمعوا كلامَهم، لكنَّه تعالى علمَ منهم أنَّهم لا يقولون هذا الكلامَ إلّا على سبيلِ العنادِ والتَّعنُّت، وأنَّهم لو أسمعهم اللّهُ تعالى كلامَهم؛ لتولَّوا عن قبولِ الحقِّ[2].

انـتـفـاءُ الـخـيرِ فيهم دالٌّ على انتفاءِ أن يكونَ منهم خيرٌ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.
(2) ابن التَّمجيد، حاشية ابن التّمجيد مع حاشية القونويّ: 50/9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾:

عبَّرَ بيانُ اللهِ تعالى عن عدَمِ وجودِ خيرٍ في إدراكِهم يعلمُهُ اللهُ تعالى ولكنَّهم لا خيرَ في جِبلَّةِ مداركِهم، فلا يعلمُ اللهُ فيه خيرًا لخُلوِّهم عنهُ بالمرَّةِ، فلم يُسمِعْهم كذلكَ لخلوِّه عنِ الفائدةِ وخروجِه من الحكمةِ، فلذلكَ لم ينتفعوا بكلامِ اللهِ، فهم كمَنْ لا يَسمع[1].

من لم ينتفعْ بكلامِ اللهِ؛ فهو فاقدٌ للسَّمعِ، خالٍ من الفهم

الغرضُ مِنَ التَّعبيرِ بالكنايةِ في الآية:

﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡ﴾ عبارة بليغةٌ في ذمِّهم؛ إذْ لو علمَ اللهُ منهم خيرًا؛ لأسمَعهم إسْماعَ تفهُّمٍ وهدًى، فوقعتِ الكنايةُ عن عدمِ اسْتعدادِ مَداركِهم للخيرِ بعلمِ اللهِ عدمَ الخيرِ فيهم، ووقعَ تشبيهُ عدمِ انْتفاعِهم بفهمِ آياتِ القرآنِ بعدمِ إسماعِ اللهِ إيّاهم؛ لأنَّ الآياتِ كلامُ اللهِ، فإذا لم يَقْبلوها، فكأنَّ اللهَ لم يُسمعْهم كلامَهُ، فالمرادُ انْتفاءُ الخيرِ الجبلّي عنهم، وهو القابليَّةُ للخيرِ، ومعلومٌ أنَّ انْتفاءَ علمِ اللهِ بشيءٍ يُساوي علمَهُ بعدمِه؛ لأنَّ علْمَ اللهِ لا يتخلَّفُ عن شيءٍ[2].

لمّا انتفى اسْتعدادُ مَداركِهم للخيرِ؛ سَلَبَ اللهُ منهم القابليَّةَ للإجابةِ والهداية

دَلالةُ (في) في قوله: ﴿فِيهِمۡ﴾:

(في) حرفُ جرٍّ، وهو هنا يُفيدُ الظَّرفيَّةَ المجازيَّةَ الَّتي هي في معنَى المُلابَسة، ومِن لَطائفِها هنا أنَّها تُعبِّرُ عن مُلابَسةٍ باطنيَّة، وهذه لا يعلمُ بها إلّا اللهُ ﷻ فلو علمَ اللهُ في مَكْنونِ قلوبِهم اسْتعدادًا وقابليَّةً واسْتجابةً للخَيْرِ؛ لوفَّقهم للرَّشادِ وهَداهم للحقِّ[3]، كما أنَّ حرفَ الوعاءِ دالٌّ على انتفاءِ أن تكونَ الهدايةُ في مكوِّنهم وتكوينهم، فالتَّعبيرُ بحرف الوعاءِ أبلغُ في نفي هدايتِهم من التَّعبيرِ بـ (من).

(في) للظَّرفيَّة المجازيَّة الَّتي تُعبِّر عن مُلابَسةٍ باطنيَّة

بلاغةُ العطفِ في الآية:

قولُه تعالى: ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ﴾ معطوفٌ على ما تقدَّمَهُ ﴿وَلَوۡ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/5، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 480/2.
(2) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 300/5، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9.

إسماعُهم للحقِّ مَسبوقٌ بعلمِ اللهِ فيهم خيرًا، ولكنّهم لا خير فيهم

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾، أي: الإسْماعُ هنا متوقِّفٌ على علمِ اللهِ بوجودِ خيرٍ في نفوسِهم، والمعنَى: لو أسْمَعَهُمُ اللهُ سماعَ تفهُّمٍ وتدبُّرٍ، ولَوَقَفوا على حَقيَّةِ الرَّسولِ ﷺ وأطاعوهُ، وآمنوا بهِ، ولكنْ لم يعلَم فيهم شيئًا من ذلك لخُلوِّهم عنه بالمرَّة، فلم يُسمِعْهم كذلكَ لِخُلوِّه عن الفائدة وخروجِه عن الحِكمة[1].

المفارقةُ في المعنَى بين الفعلَيْنِ: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، و﴿أَسْمَعَهُمْ﴾:

(لأسْمَعَهم) ما يسمعون، و(أسمعهم) سماعَ تَفهُّمٍ وانْتفاعٍ

قولُه تعالى: ﴿لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي: لَأفْهمَهم ما يسمعون، وهو ارْتقاءٌ في الإخبارِ عنهم بانْتفاءِ قابليَّةِ الاهْتداءِ عن نفوسِهم في أصْلِ جبلَّتِهم، فإنَّهم لَمّا أخبرَ عنهم بانْتفاءِ تعلُّمِهمُ الحكمةَ والهُدَى؛ فلذلكَ انْتفَى عنهم الاهْتداءُ، ارْتقَى بالإخبارِ في هذا المعنَى بأنَّهم لو قَبِلوا فهْمَ الموعظةِ والحِكمةِ فيما يَسمعونَه من القرآنِ وكلامِ النُّبوَّةِ؛ لَغلبَ ما في نفوسِهم من التَّخلُّقِ بالباطلِ على ما خالَطَها من إدْراكِ الخَيْرِ، فحالَ ذلكَ التَّخلُّقُ بينَهم، وبينَ العملِ بما سمعوا، وبما علِموا، فتولَّوْا، وأعْرضوا، ولهذا فإنَّ قولَهُ: ﴿أَسْمَعَهُمْ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ﴾ بمعنَى: أسْمعهم سَماعَ تفهُّمٍ، وهم على هذه الحالةِ العاريةِ من الخيرِ بالكُلِّيَّةِ، لَتولَّوْا عمّا سَمِعوهُ من الحقِّ، ولم يَنْتفعوا به قطُّ، أوِ ارتدّوا بعدَما صدَّقوه، وصاروا كأن لم يسمعوه أصلًا[2].

والحاصلُ أنَّ السَّماعَ له درجاتٌ، أسفلُها: أن يعمدَ من يُتلى عليه القرآنُ ألّا يسمعَهُ مبارزةً له بالعداوةِ من أوَّلِ وهْلةٍ؛ خوفًا من سلطانِه على القلوبِ أن يغلبَهم عليها، كالَّذين قال اللهُ فيهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، ويليها من يستمعُ وهو لا ينوي أن يفهمَ، ويعلمَ كالمنافقين المُشارِ إليهم بقولِه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 480/2.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 480/2، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 307/9 - 308.

أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ الآية، ويليها من يستمع لأجلِ التماسِ شبهةٍ للطَّعن والاعتراضِ، كما يفعلُ المعاندون من المشركينَ، وفي أيّامنا المستشرقون المعادون للإسلام، وهذه الدَّرجاتُ كلُّها لغيرِ المؤمنين، ويليها أن يسمعَ ليفهمَ، ويتدبَّرَ، ثم يُحكمَ له أو عليه[1].

دَلالةُ الاقْترانِ بين جملتَيِ الشَّرط ﴿وَلَوۡ عَلِمَ﴾ ﴿وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ﴾:

الاقـــترانُ بين جملتَيِ الشَّرطِ اسْتلزاميٌّ، بين علمِ اللهِ عدمِ خـيريّـتـهـم، وعـدمِ فهْمِهم للمسموع

قد يُظَنُّ أنَّ فيما بين هاتين الجُملتَيْن الشَّرطيَّتَيْنِ تفرُّعًا، أي: تفرُّعُ الثّانية على الأولى تفرُّعَ القضايا بعضِها على بعض في تركيب القياسِ؛ لأنَّ ذلكَ لا يجيءُ في القياسِ الاسْتثنائيِّ، ولا أنَّه من تفريعِ النَّتيجةِ على المقدِّمات؛ لأنَّ تفريعَ الأقْيسَةِ - بتلكَ الطَّريقة الَّتي تُشبهُ التَّفريعَ بالفاءِ - ليس أسلوبًا عربيًّا، فالجُملتان في هذه الآية كلُّ واحدةٍ منهما مُستقلَّةٌ عن الأُخرى، ولا تجمعُ بينَهما إلّا مناسبةُ المعنَى والغَرضِ، فليس اقْترانُ هاتَيْنِ الجُملتَيْنِ هنا بمنزلةِ اقْترانِ قولِهم: لو كانت الشَّمسُ طالعةً؛ لكانَ النَّهارُ موجودًا، ولو كانَ النَّهارُ موجودًا؛ لَدَرَجَتِ الدَّواجنُ، فإنَّه قد يَنتُجُ: لو كانتِ الشَّمسُ طالعةً؛ لدَرجَتِ الدَّواجنُ، بواسطةِ تَدرُّجِ اللُّزوماتِ في ذِهْنِ المَحْجوجِ تقريبًا لفهمِه، فإنَّ ذلكَ بمنزلةِ التَّصريحِ بنتيجةٍ، ثمَّ جعلَ تلكَ النَّتيجةَ الحاصلةَ مقدِّمةَ قياسٍ ثانٍ، فتُطوى النَّتيجةُ لظهورِها اخْتصارًا، وهذا ليسَ بأسلوبٍ عربيٍّ، إنَّما الأسلوبُ العربيُّ في إقامةِ الدَّليل بالشَّرطيَّة أنْ يقتصِرَ على مُقدَّمٍ وتالٍ، ثمَّ يُستدرَكُ عليه بالاسْتنتاجِ بذكرِ نقيضِ المقدَّم، وإذا كانَ ذلك كذلكَ؛ فإنَّ ﴿وَلَوۡ﴾ الواقعةَ في هذه الجملةِ الثّانيةِ من قَبيلِ ﴿وَلَوۡ﴾ المُشتَهِرَةِ بين النُّحاةِ بـ (لو) الصُّهيبيَّةِ بسببِ وقوعِ التَّمثيل بها بينَهم بقولِ عمرَ بنِ الخطّابِ ﷺ: «نِعْمَ العبدُ صهيبٌ، لو لم يَخَفِ

(1) رشيد رضا، تفسير المنار: 525/9.

اللّه؛ لم يَعْصِه»[1]. وذلك أن يُستعملَ (لو) لقَصدِ الدَّلالةِ على أنَّ مضمونَ الجزاءِ مُستمِرُّ الوجودِ في جميعِ الأزْمنةِ والأحوالِ عند المتكلِّم، فيأتي بجملةِ الشَّرطِ حينئذٍ مُتضمِّنةً الحالةَ الَّتي هي مَظِنَّةُ أنْ يتخلَّفَ مضمونُها عند حصولها الجزاءَ؛ لو كانَ ذلكَ ممَّا يحتملُ التَّخلُّفَ، فقولُه: «لو لم يَخَفِ اللّه؛ لم يَعْصِه»؛ المقصودُ منه انْتفاءُ العصيانِ في جميعِ الأزْمنةِ والأحوالِ حتَّى في حالِ أمْنِه من غضبِ اللّهِ، فليس المرادُ أنَّه خافَ، فعصَى، ولكنَّ المرادَ أنَّه لو فُرِضَ عَدَمُ خوفِه؛ لَما عَصَى، وبناءً على ما تقدَّم، فإنَّ هذا الاسْتعمالَ يُضعِفُ معنَى الامْتناعِ الموضوعِ لهُ (لو)، وتصيرُ (لو) هنا في مجرَّدِ الاسْتلزامِ على طريقةٍ مُسْتعمِلةٍ للمجازِ المرسَلِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسْتعارة، في قوله: ﴿لَتَوَلَّواْ﴾:

في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ﴾ ليس المعنَى على أنَّه لم يُسمِعْهم، فلم يتولَّوْا؛ لأنَّ تولّيهم ثابتٌ، وهو مستعارٌ من عدمِ فهمِهم وامْتثالِهم، فالمعنَى: على أنَّهم يتولَّوْنَ في حالةٍ ما، لو سمعهمُ اللّهُ الإسماعَ المخصوصَ، وهو إسْماعُ الإفهام، فكيفَ إذا لم يسمعوه[3]؟ وكأنَّه فرارُ يومِ الزَّحفِ من إسماعِ الفهمِ والاستجابةِ، والاستعارةُ تصوِّرُ عداوتَهم للحقِّ والهُدى.

استعارةُ التَّولّي من عدمِ فهمِهم واسْتجابتِهم

بلاغةُ قَيْدِ التَّولّي بالجملةِ الحاليَّةِ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾:

جملةُ: ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ حالٌ من ضميرِ ﴿لَتَوَلَّواْ﴾، وهي مُبَيِّنةٌ للمرادِ مِنَ التَّولّي، وهو معناه المجازيُّ، فالمعنَى: أنَّه لو أسمَعهم بعدَ أنْ علمَ أنَّه لاخيرَ فيهم لمن ينتفعوا بالحُجَجِ والمواعظ، ولَتولَّوْا، وهم مُعرِضون[4].

الجملةُ الحاليَّةُ مؤكِّدةٌ لمعنَى التَّولّي

(1) هذا الخبرُ لا أصلَ له، ولا يوجدُ بهذا اللَّفظ في شيءٍ من كُتُب الحديث، ينظر: علي القاري، المصنوع، ص: 202، وإسماعيل العجلونيّ، كشف الخفاء: 323/2، والسُّيوطيّ، تدريب الرّاوي: 175/2، وذكر السُّيوطي أنَّه من كلام النُّحاة، ولا أصلَ له في الحديث النَّبويّ.

(2) ابن عادل، اللُّباب في علوم الكتاب: 488/9 - 489، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 309/9 - 311.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 310/9 - 311.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 470/15، وابن عاشور، التّحرير والتَّنوير، 311/9.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الحاليَّةِ الاسميَّةِ:

أفـادتِ الجملةُ الاسميَّةُ تمكُّنَ إعراضِهم

جاءتْ صيغةُ جملةِ: ﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ اسميَّةً للدَّلالةِ على تمكُّنِ إعراضِهم وثباتِهم عليه، أي: إعْراضًا لا قَبولَ بعدَهُ[1]، وهو قيدٌ مناسبٌ لوصفهم بعلمِ اللهِ الأزليِّ بعدمِ هدايتِهم، وتعليلٌ لوصفِهم بعدمِ الهدايةِ؛ لأنَّ إعراضَهُم ثابتٌ مستمرٌّ.

دَلالةُ وقوعِ الإعراضِ حالًا للمتوَلّين:

مِنَ المتولّينَ مَن أقْبَلَ إلى اللهِ، ثمَّ كانَ مِن خيرَةِ المسلمين

أعْقبَ في قولِه: ﴿وَهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ بجملتِه الحاليَّة قولَه: ﴿لَتَوَلَّواْ﴾؛ ليدُلَّ بمفهومِ المخالفةِ أنَّ مِنَ التَّولّي ما يُعقِبُهُ إقْبالٌ، ويَصدُقُ على ذلكَ تولّي الَّذين تَوَلَّوْا، ثمَّ أسْلموا بعدُ، كمُصْعَبِ بن عُمَيْرٍ[2] رضي الله عنه.

دلالةُ الجمعِ بين التَّولّي والإعراضِ:

الـتَّـأكـيـدُ على الإصـــرارِ على عدمِ الهدايةِ

قولُهُ: ﴿لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ جَمعَ اللهُ بين التَّولّي والإعراضِ لوجودِ فرْقٍ بينهما، يقول صاحبُ المنار: "وفرقٌ عظيم بينَ التَّولّي العارضِ لصارفٍ مؤقَّتٍ، وتولّي الإعراضِ والكراهةِ الَّذي فقدَ صاحبُه الاستعدادَ للحقِّ وقبول الخيرِ فقدًا تامًّا"، والصِّنفُ الأخيرُ هو المرادُ في هذهِ الآيةِ؛ لأنَّهم فقدوا الاستعدادَ للإيمان[3]، فلم يوفِّقهم اللهُ للسَّماع النّافع، حيثُ أفسدوا فطرتَهم، فصاروا ممَّن وصفَهم اللهُ بقولِه: ﴿كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 311/9.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 311/9.
(3) رشيد رضا، تفسير المنار: 524/9.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»